

حديث في بعض جهود أبناء العربية قديما

الأستاذة يمينة مصطفى

أستاذة مساعدة مكلفة بالدروس قسم أ

المركز الجامعي .البويرة - الجزائر

الملخص:

يتضمن موضوع مداخلتي الحديث عن اللغة العربية و أبنائها في القرون الأولى للهجرة، و بالتحديد مع و بعد نزول القرآن الكريم، محاولة إبراز أهم الجهود التي بذلها علماؤها في ذلك الوقت، محاولين النهوض بها، و إبراز قيمتها و تأكيدها، فحاولت أن أركز خاصة على جهودهم في مجالين برعوا و قدّموا فيهما الجديد المتميّز هما:

- الدراسة الصوتية.

- الدراسة النحوية.

واسمحوا لي أن أعود بكم بمداخلتي هذه إلى قرون سابقة في التاريخ العربي والإسلامي، حيث كانت غيرة العرب المسلمين على لغتهم في أوجها إذ بدأت جهودهم و أدأؤهم لواجبهم، و بدأ حرصهم على إعطائها حقها من البذل والتفاني والتضحية في سبيل الرقي و الحفاظ عليها.

- لقد كان القرآن الكريم الأرض الخصبة التي نمت و ترعرعت و تطوّرت فيها الدراسات اللغوية العربية، فمنه انطلق علم الأصوات، وعلم النحو، وعلم البلاغة و الدلالة، و فقه اللغة و تأليف المعاجم و غيرها من العلوم.

المداخلة:

إذا أردنا الحديث عن تاريخ اللغة العربية، فلن نضرب في أعماقها و جذورها، لأن ذلك يحتاج إلى بحث كبير و لم شتات نتائج دراسات تاريخية كبيرة و كثيرة، و هو ليس هدفنا من هذا البحث، لكننا سنكتفي بتاريخ اللغة العربية الحاضرة إلى لغة الشعر الجاهلي و صدر الإسلام إلى يومنا هذا. و هي اللغة التي سادت شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرن و نصف من الزمان آخذين بهذه المدة التي جعلها و حددها علماء اللغة من حيث الفصاحة و الاحتجاج اللغوي فحدّوا عصر الاستشهاد بقرن و نصف قبل الإسلام و قرن و نصف بعده و قد كان الشعر في ذلك الوقت العقد المرصّع بلألى اللغة من لأفواه شعرائها الفحول، فكان حبّهم للغتهم و قيمتها عندهم لدرجة أن جعلوا الشاعر الناطق بها، و الفارس الحامل للسيف بمقام واحد، و ربّما الأوّل كان أرفع لأنه يمثل هويّتهم و حقيقتهم و يدافع عنها، >> فقد أحسّ العرب جمال لغتهم و رقيّها فحاولوا السيطرة عليها ليتّخذوا منها سلاحًا بتّارًا في عداواتهم وخصوماتهم، فكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها بذلك، و صنعوا ما يصنع في الأعراس (...) لأّنه حماية لأغراضهم و ذبّ عن أحسابهم و تخليد لمآثرهم، و إشادة لذكورهم.<< (1)

فقد أدرك العربي قبل الإسلام أنه لا يملك مقوّمات بناء حضارة مادّية مزدهرة كما هو الحال عند الأمم الأخرى، تخلّد و تشهد ببقائهم فلا مناص إذن من أن يعطي جلّ طاقته و اهتمامه للغته، لأّنه اكتشف بفطرته أنّها الوسيلة الوحيدة لإبقاء ذكره و تخليد مآثره(2) كما ذكرنا. فكانت اللغة بالنسبة له محور حياته سلما و حربا.

و عمر العربية طويل ممتد في أعماق الزمان قبل الإسلام بقرون هيئت فيها اللغة عبر مراحل تطوّر مختلفة لتحمل تبعات رسالة خاتمة للعالمين اكتسبت فيها اللغة عبر هذه الرحلة من الحصانة و الحصانة العبقريّة ما لم تكسبه لغة أخرى(3) و لعل أسواقا لنقد العربي القديم تبرز لنا الكثير من قواعدهم وقوانينهم في ضبط و حفظ اللغة و الذود عنها.

>> فلماذا اندثرت اللغات المختلفة الأخرى كالسامية الأم، و الآرامية و الأكادية و غيرها، و لم تندثر عربيتنا الفصحى، على الرغم من أنها لم تدون قبل الإسلام . بل إن اللغة العربية في أواخر العصر الجاهلي ارتقت رقيًا كبيرًا و تطوّرت جميع لهجاتها التي تتكلم بها القبائل المختلفة و نشأت لهجة أدبية راقية تأخذ من هذه اللهجات جميعًا.<<(4) و كأنّها توحدت في لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم، اللسان العربي المبين.

إذن جاء الإسلام، فزاد الله من تكريم هذه اللغة بأن اختارها لتكون لغة كتاب الرسالة الخاتمة لما تملك هذه اللغة من خصوصيات لغوية تجعلها أقدر على حمل هذه الرسالة و حفظها للناس كافة، >> و قد كان نزول القرآن بالعربية حدثًا هزّ أركان الأرض و أعطى للعرب من السيادة و السبق ما لم يعطيه شعب من الشعوب، و لا أمة من الأمم، حتى صارت الأمم الداخلة في دين الإسلام تتسابق إلى تعلّم العربية، فهي لسان القرآن، و لغة حضارة و تاريخ، و وسيلة فصاحة و بيان و رقي اجتماعي<<(5) يقول الدكتور حسين: >> فاستمرتّ عناية العرب بلغتهم بعد ظهور الإسلام، و قيام دولتهم المترامية الأطراف، بل زادت هذه العناية عندما شعروا بتفوّقهم على الأمم الأجنبية نتيجة غلبة الجيوش الإسلامية فعنوا بجميع مظاهر هذا التفوّق كل عناية، و ميّزا كل ما يتصل بهم عما يتصل بهذه الأمم.<<(6)

فاللغة في عصر صدر الإسلام تكاد تكون امتدادًا طبيعيًا من حيث حبها و التآلف معها والسعي و الحرص على صونها و صيانتها و حفظها من الشوائب كما كان الحال في العصر الجاهلي. و قد كان القرآن الكريم نفسه الدليل على هذا التفوّق اللغوي، فهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، التي تحدّى بها العرب ميدان فخرهم و اعتزازهم و تفاخرهم.

و في العصر الأموي مع ما تميّز به هذا العصر من حب و تفاخر و تعصّب للجنس و اللّغة والوجود و الكيان العربي لا نفرّق بين اللّغة في هذا العصر و بينها في العصر الجاهلي تسوى أن حب الجاهلين للغتهم فحرصوا عليها أما بني أميّة فأجبروا المجتمع على حبّ اللّغة و التعصّب البدوي منها على حساب الحضري كما هو حالهم في التعصّب لكل ما هو عربي خالص.<<(7)

أما في العصر العباسي فقد >> أصبحت اللّغة العربية نظراً للتطوّر الذي أصاب المجتمع بحاجة إلى تطوير و تهذيب و توسيع، و ضبط، خصوصاً بعد أن استقرّ العرب في الأقطار التي افتتحوها، وخالطوا الأعاجم و احتكوا بهم (...) و كانت اللّغة في هذا الوقت شائعة في البلاد الفارسية و ظلّت تنتشر و تمتد، فكان من أثر ذلك أن تأثرت بالمفردات و التراكيب الأعجمية>>(8)

>> فكانت بذلك اللّغة العربية هي الضحية الأولى لذلك الانفتاح العقلي الاجتماعي اللانهائي، فالعجم امتلأت بهم الدواوين، و البيوت و الشوارع (...) و هم أصحاب بناء لغوي تحتي - أي لسان عربي- مخالف للعربية فوجدنا ما أطلق عليه د/ حسين نصار

ب >> لغة الواسطة>> فقد شاعت و انتشرت، و هي محاولة التبسيط في اللّغة صوتاً

و نحواً و صرفاً حتى يتم التفاهم بين العنصر العربي و العنصر العجمي، و لكن هيهات أن تغفل عين المخلصين للدين و اللّغة عن هذا.<<(9)

" فكان نشاط علماء المسلمين في ذلك يسترعي الأنظار و يستخرج العجب، و ليس هناك من نشاط يشبهه إلاّ نشاط العرب في فتح البلدان، فقد نظم العلماء أنفسهم لفرق الجيش، كل فرقة يغزوا الجهل

والفوضى في ناحيتها حتى تخضعها لنظامها، ففرقة اللغة، وأخرى للحديث، وفقرة للنحو وأخرى للكلام، وهم يتسابقون في الغزو والانتصار وتدوين العلوم وتنظيمها تسابق قبائل العرب في الفتوح والغزوات". (10)

فبقيت وظلت اللغة العربية كما كانت دائما من العصر الجاهلي هاجسا وحلما وحقيقة تلوح بفكر وعقل ووجدان العربي أينما حل وارتحل، مهما بلغ من مناصب السلطة والجاه والمال، وكأن اللغة بالنسبة له هي التاج الذي يتربع على العرش كل ما سبق.

وقد كان رجال الدولة من خلفائها وأمرائها وقاداتها وأشراف الناس وعامتهم يحرصون على تنشئة أبنائهم على سلامة اللغة وفصاحة الألسنة ولاسيما أبناء الخلفاء منهم، وقد اعتادوا هذا الأمر منذ العصر الجاهلي إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى العصر العباسي. >> ولم يكن كل الناس قادرين على إيفاد أبنائهم إلى البادية، فظهرت فئة من الربين الفصحاء يتولون تنشئته >> (11)

- هذا عرض موجز عن اللغة العربية في العصر الجاهلي، والإسلامي والأموي والعباسي حيث انهارت الدول ولم تنهر هذه اللغة الكريمة بفضل القرآن الذي هو وعاءها وحافظها بأمر من الله في كتابه الكريم، حيث قال: >> إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون >> (الحجر، الآية 09) . ففي حفظ القرآن حفظ بضرورة اللغة العربية.

ظهور اللحن في اللغة العربية:

إذا كنّا قد تطرّقنا فيما سبق إلى اللغة العربية في العصور السابقة المتتابعة وأوضحنا علاقة أبنائها بها، والتي كانت علاقة حميمة وطيدة يحكمها الحرص والخوف على هذه اللغة من الضياع. و السؤال الذي نطرحه الآن: ما هو أخطر شيء هدّد اللغة العربية والذي حرّك همهم وعقول أبنائها ووجّه جهودهم صوبه للتخلّص منه والقضاء عليه و وضع سياج حصين يحمي اللغة من أي خطر قد يداهمها. §

سيتفق جميع الباحثين والدارسين بأنه اللحن، فكيف ظهر، ومتى، وأين ولماذا، وكيف كان رد فعل أبناء العربية اتجاهه؟

سنحاول الإجابة على كل هذه الأسئلة من العرض الآتي:

يقول ابن الأثير في " النهاية في غريب الحديث ": >>...فكان اللسان العربي عندهم صحيحا محروسا، لا يتداخله الخل، ولا يتطرق إليه الزلل، إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم... فاختلفت الفرق وامتزجت الألسن << (12)

ويقول ابن خلدون في نفس المقام: >> فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعرّبين من العجم، والسمع أبوا الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع.<< (13)

ويقول أبو بكر الزبيدي: >> فاختلف العربي بالنبطي، والتحق الحجاز بالفارسي، ودخل الدين أخلاط الأمم (...). فوق الخل في الكلام وبدأ اللحن في السنة العوام<< (14)

من هذه الأقوال الثلاثة وبإجماع العلماء في القديم والحديث نقول إن اللحن لم يكن في الجاهلية إنما ظهر بظهور الإسلام أو بعده بقليل.

وقد وردت أخبار اللحن تشير إلى وقوعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه- ولما ازداد الفتح وانتقل إلى أطراف الجزيرة العربية، وهي مواطن ضعف الألسنة العربية والخطأ، وبدئ بفتح العراق، ودخل الأعاجم في الإسلام وسكنوا المدن الإسلامية ولا سيما

بعد تأسيس البصرة والكوفة، أخذ اللحن ينتشر على نطاق واسع، نتيجة هذا الاختلاط وتضخم المجتمع الإسلامي ولا سيما في البصرة.

ويمكن عرض مظاهر اللحن فيما يأتي:

1- اللحن في الألفاظ: وهو الخطأ في الإعراب، وهذا يتعلق بعلم النحو ثم الخطأ في بنية الكلمة (...). والخطأ في تحريك أواسط الفعل الثلاثي من ضم أو فتح أو كسر، وهكذا الخطأ في الأسماء وضبطها ضبطا صحيحا.

2- التسكين في أواخر الكلم⁽¹⁵⁾ كأنهم يأخذون بمبدأ سَكَنَ تسلم الذي هو في الواقع: سَكَنَ تكسر.

وغيرها من مظاهره كاللحن الصوتي الذي سنعرض له عند حديثنا عن جهود علماء الغربية في حفظ المستوى الصوتي لها.

ليمتد هذا الخطر الداهم المحدث باللغة والقرآن الكريم وبالضبط إلى قرآن القرآن الكريم، وقد وردت روايات كثيرة تحكي أمثلة عما وقع من لحن في قراءة القرآن الكريم أدى مباشرة إلى انغلاق الفهم وسوء الحكم، من ذلك ما ورد في كتاب "نزهة الألباء" لابن الأنباري، وفي كتاب "الخصائص" لابن جني وغيرهما >> أن أعربيا قدم في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: "من يقرئني شيئا مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، فأقرأه رجل سورة" براءة" فقال "..." أن الله بريء من المشركين ورسوله" بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر ما قاله الأعرابي، فدعاه، فقال: "يا أعربي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: "يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسأله: "من يقرئني فأقرأني هذا سورة (براءة)"، فقال: أن الله بريء من المشركين ورسوله فقلت [ما قلت]، فقال عمر (رضي الله عنه): ليس هكذا يا أعربي، فقال كيف يا أمير المؤمنين؟، فقال: أن الله بريء من المشركين ورسوله" فقال الأعرابي:

و أنا و الله أبرأ ممّن برىء الله و رسولّه منهم"، فأمر عمر (رضى الله عنه) أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، و أمر الأسود الدؤلى أن يضع النحو>>.

فهرع الغيارى من أهل العربىة إلى اتخاذ إجراءات دقىة لمقاومة ورد و دحض هذا الخطر الكبرى، وقد كان على رأسهم ولاة الأمر و علماء العربىة فوضعوا ما عرف فىما بعد بعلم النحو، يقول ابن خلدون: >> ... فحين أهب العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة (الملكة اللّغوىة) رأسا، و يطول العهد بها، فىنغلق القرآن و الحديث على المفهوم، فاستتبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، (...) وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب و اصطلاحوا على تسميتها بعلم النحو>>(16) فأصبح النحو فنا محفوظا، و علما مكتوبا و سلّما إلى فهم كتاب الله و سنّة رسولله صلى الله عليه وسلّم راقيا.(17)

فالقرآن الكرىم منزل باللغة العربىة، و الحديث الشرىف منقول بها، و هما أصل الدين و الملة فخشىة تناسيهما و انغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذى تتزّلا به بسبب ظهور اللّحن كان السبب الأول لبعث جهود أبناء العربىة لتحصىن اللّغة، و من ثمّ ظهور مختلف علوم العربىة من صوتيات، و علم النحو والقراءات و المعاجم و غيرها.

*- جهود أبناء العربىة من أجل الحفاظ على المستوى الصوتى للّغة:

عندما نتحدّث عن المستوى الصوتى لأي لغة، سنتحدّث بالضرورة عن الدرس الصوتى و تطوّره إلى علم الأصوات.

و إذا بحثنا عن مراحل و مظاهر علم الأصوات عند أبناء العربىة فى القدىم يمكننا أن نجمل الحديث فىه فىما يأتي:

لقد توقّرت لعلم الأصوات عند العرب دوافع انبثقت من طبقىة الظروف -التي ألمحنا إليها فىما سبق- و التى مرّ بها المجتمع العربى الإسلامى منذ القرن الأول للهجرة. و لعلّ أهم هذه الدوافع ما يأتي:

1- ظهور اللحن في الأصوات:

>> لعلّه أهم الدوافع التي شدّت انتباه اللّغويين و دفعتهم إلى اتخاذ مواقف تصحيحية تجاهه، فقد فشّي في الوسط العربي بعد اختلاط العرب بالأمم الأخرى بظهور الإسلام، إذ كانت لتلك الأمم حضاراتها، وفي مقدمة ذلك لغاتها و عاداتها الكلامية، فاصطدمت الألسن و بدأ اللّحن.<< (18)

و اللّحن الذي يهمنّا في هذا الحديث هو اللّحن الذي مسّ الأصوات و أمالها و أبعدّها عمّا توجبه طباع و قوانين و سنن العرب في نطقها.

كان ظهوره الأوّل مع الأعاجم كالفرس و النبط الذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات العربية كأصوات الحلق و الإطباق، فاضطّروا إلى استبدالها بأصوات سهلة عليهم تتناسب و عاداتهم الكلامية، مثل ما ذكره الجاحظ - و قد كان أكثر العلماء تتبّعاً و اهتماماً بعيوب النطق عند الأعاجم - حيث أفرد في هذه المسألة فصولاً في كتبه، و نذكر له مثالا يقول فيه: >> كان صعيب بن سنان يرتطن لكنه رومية أنته من قبل أن الروم اختطفته في طفولته، فشّبّ بينهم و جرى على عاداتهم النطقية، حيث روى أنه كان يبذل ألهاء هاء، و مما أثر عنه في هذا الصدد قوله: >> إنك لهائن يريد لحائن أي لهالك.<< (19)

و عمّ اللحن و انتشر أكثر فأكثر بسبب كثرة الاختلاط و الامتزاج بين العرب الناطقين بعربيّتهم والأعاجم الحاملين لعاداتهم الكلامية النطقية و الذين يجب عليهم تعلم و نطق العربية لدخولهم في الإسلام، فنجم عن ذلك أيضا من صور اللحن الصوتي، التّفخيم المحض لسائر أصوات العربية، خاصّة في قراءة القرآن الكريم، فتنبّه القراء إليه، و نصّوا على عدم جواز القراءة به، و أكّدوا أنه >> لا يجوز في القرآن، بل هو معدوم في لغة العرب، و إنّما يوجد في لفظ عجم الفرس لا سيما أهل خراسان<< (20)

و استغل هذا الداء أكثر و أكثر و صار يهدّد البنية الصوتية للعربية تهديداً حقيقياً، إذ انتقلت عدواه من العجم إلى العرب بفعل المعاشة اليومية و أصبح بذلك واقعا يوميا يستوجب البحث و المعالجة،

وخاصة خاصة بعدما انتقلت عدواه إلى أخص متكلمي العربية و هم قرّاء القرآن الكريم، يقول ابن الجزري: >> أصل الخلل الوارد على أسنة القراء ... إطلاق التفخيمات و التغليطات على طريقة ألفتها الطباعات، تلقيت من الأعاجم ... و اكتسها العرب <<(21)

و تنبّه كتاب الوحي في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إلى هذا اللحن فنصوا على أمكنة تفخيم الألف كتابة بزيادة واو للدلالة على أن الألف هنا مشربة شيئاً من التفخيم <<(22)

فبدأت جهود علماء القراءة تتجه صوب مواجهة اللحن لارتباطه بكتاب الله تعالى و "أجمعوا على عدم صحة الصلاة خلف من لا يحسن القراءة و عدّوا القراءة من غير تجويد لحنا(23) و اشترطوا على مريدي القراءة أن يكونوا على دراية تامة بها و لما يتعلّق بها من معرفة شافية كافية بالأصوات، يقول ابن الجزري: (24)

إذ واجب عليهم محتّم قبل الشروع أولاً أن يعلموا

مخارج الحروف و الصفات لينطقوا بأفصح اللّغات

و كان اهتمام القراء و معالجتهم لهذا الأمر لا يعدو تصحيح الأداء بالإعادة و التكرار، >> إذ ثبت لديهم أنّ التجويد و الأداء الحسن أساسها رياضة الألسن و المعاودة للفظ المتلقّى من فم المحسن << (25)

فكان منحصراً في دائرة المشافهة، و لم يتعد ذلك إلى وصف نظري لهذه العملية التطبيقية، أي لم يصل بعد إلى مرحلة التنظير، و عم ذلك فإن هذه العملية تعد الخطوات و المساهمات الأولى لأبناء العربية من أجل الحفاظ على سلامة المستوى الصوتي للغتهم، فهي تعد بذلك من اللبّات الأولى في بناء صرح علم الأصوات عند العرب، و الذي كانت العناية به سعيًا وراء تحقيق هدف نبيل و عظيم هو المحافظة على كتاب الله عزّ وجلّ. و بالتالي المحافظة على لغة هذا الكتاب، و هي اللسان العربي المبين فتتمكن بذلك القراء من وضع قواعد سليمة و أسس متينة تحفظ للغة جوهرها و هو الأصوات.

2- الاختلافات الصوتية: تعتبر هي الأخرى من الدوافع إلى الإهتمام بالمستوى الصوتي للغة العربية، وهي عبارة عن اختلافات بين قراء القرآن الكريم أنفسهم و لكنّها لا تدخل في دائرة اللحن، لأنّها ليست خارجة عن اللسان العربي، و يعود سبب وجودها إلى الاختلافات الأدائية للأصوات، في مختلف اللهجات العربية، و ما نجم عنها من فروق صوتية قد أقرّها الرسول صلى الله عليه وسلّم و لم ينكرها، و ذلك واضح عن الأحرف السبعة حيث قال صلى الله عليه وسلّم: >> إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأقرؤوا ما تيسر منه.<< حديث متفق عليه. (26)

فالأحرف السبعة ليست على وجه التحديد القراءات السبع المشهورة، و لكنها تشير إلى الإنحرافات في النطق التي تؤدي إلى اختلاف أداء الأصوات، حيث كان القراء من قبائل عربية مختلفة، و رغم تباينهم في أوجه القراءة إلّا أنّهم كانوا على دراية تامة بما تمتاز به كل لهجة عن الأخرى، و بإمتدادا لزمن وكثرة الآخذين عنهم وقع بينهم (الآخذون).

ما ينبئ بالخلاف مما دفع الصحابة القراء الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إلى معالجة الأمر، فكان من رأيه أن يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد.

و قد حرص القراء أن تكون قراءات القرآن الكريم كما ارتضاها الله لرسوله و للمؤمنين.

>> و قد كان الرسم القرآني الخالي من نقط الحروف المتشابهة خطأ، و الخالي من الحركات على الحروف سببا في حفظ الاختلاف الموجود في قراءات القرآن الكريم، و قد كان موجودا بالأصالة، لأن القراءة سنة متبعة، و لأنّ القراء أجمعوا على الأخذ بالأثبت في الأثر، و الأصحّ في النقل، و ليس الأفسى في اللغة، و الأقيس في العربية.<< (27)

و في نهاية القرن الثاني للهجرة دخلت القراءات القرآنية مرحلة التخصص العلمي فتعمّقت مباحثها وضبطت مصطلحاتها، فأصبحت علما قائما بذاته (28)

وقد كانت و ما زالت القراءات القرآنية بفضل جهود أبناء العربية الوثيقة المرجعية الأساس للغة العربية في كل مستوياتها بدءًا بالمستوى الصوتي و الافراضي، وصولاً إلى المستوى التركيبي، و هذا كله بفضل ما قدّمه علماؤها أمثال ابن مجاهد، و ابن خالويه، و ابن جني، و أبو البقاء العكبري و غيرهم كثيرون.

و لا يخفى على الناس أن تعدد قراءات القرآن الكريم إنما هو لأجل التخفيف والتيسر على أبناء الأمة باختلاف لهجاتهم ولقد أثبتت الدراسات اللغوية الاجتماعية الحديثة أن المجتمعات ليست متجانسة اجتماعياً، وبالتالي لن تكون متجانسة لغوياً وحتى المجتمعات الريفية التي يفترض أنها متجانسة ألا تخلو من تنوع أو تغاير لغوي. فالقراءات القرآنية مرآة لغوية صادقة تعكس الواقع اللغوي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

ويجدر أن ننبه إلى أن اهتمام أبناء العربية بالجانب الصوتي من اللغة كان لغرض أسمى وأرفع ذكرناه سابقاً، وهو حفظ القرآن الكريم أولاً وحفظ لغته بالتبعية.

قد كانت هذه المرحلة الأولى للدرس الصوتي العربي، والتي كان فيها مرتبطاً بالأداء عند القراء، وظلت ظواهره تضبط بالسمع وتكتسب بالتكرار ليدخل الدرس الصوتي العربي مرحلة أخرى تسير به نحو النضج والتطور والتي تعزى الريادة فيها للخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي توجّ البدايات الأولى لنشأة هذا الدرس بدراسة لأصوات العربية من حيث المخارج والصفات، واستطاع أن يميّز بين الصامت والصائت، فأدرك منذ البداية بحقيقة جوهر اللغة وهو الأصوات، (وقد)، وذلك في إطار انشغاله بهم كبير وعظيم شغله وشغل الكثيرين من أبناء العربية قبله وبعده، وهو جمع كل اللغة في مؤلف واحد حتى لا يضيع وتهجر وتموت، وقد استغل الجانب الصوتي للغة لتحقيق غايته في تأليف معجمه << العين >> الذي يعتبر باكورة المجهود المعجمي العربي، وجاء معاصروه من تلاميذه ومن تبعهم فاستفادوا ممّا أقرّه في هذا الميدان و وصلوا إلى حقائق صوتية تعيد بها الدرس الصوتي الحديث.

ولعلّ أقدم دراسة مهمّة بعد الخليل هي لتلميذه النحوي الكبير سيبويه والذي ظفر كتابه الكاتب بمعظم الجهود الصوتية السابقة، حيث تناول فيه الأصوات اللغوية تناولاً شاملاً دقيقاً من حيث المخارج والصفات وما يطرأ عليها أثناء التركيب، وأبرز ظاهرة تعرّض لها بالدراسة هي ظاهرة الإدغام وقد مهّد لها بدراسة

عميقة لأصوات العربية، ولم يكتف بالنقل عن أستاذه الخليل خاصة أن مؤلفه في النحو وليس في الصوتيات ولكّنه مع ذلك كان يأخذ ويتفحص ويمحص لأن اللّغة ليست لغة أستاذه وكل ما يقول فيها صحيح، بل هي لغة التنزيل لغة القرآن الكريم كلام الله تعالى.

ومن مظاهر هذا التفكير عنده أنّنا نجده يخالف أستاذه في بعض الأمور الصوتية منها ترتيب الأصوات، وإضافة لأمر لم يتطرّق إليها أستاذه منها حديثه عن الحروف الأصول، والفروع المستحسنة في قراءة القرآن الكريم كالنون الخفيفة (حالة الإخفاء) والصاد التي كالزاي، وغيرها، فسار على نهج سبويه الزجاجي والزمخشري، وابن يعيش، وابن الحاجب رضي الدين الاسترلابادي وغيرهم.

وفي القرن الرابع الهجري يذكر لنا تاريخ الدرس الصوتي العربي عالما فذاً كان له الفضل في استقلال هذا الدرس، وهو أبو الفتح عثمان بن جني الذي استقل على يديه الدرس الصوتي وأصبح عالماً قائماً بذاته له أصوله وقوانينه التي يحتكم إليها و بها، ويعتبره الدارسون أول من أطلق مصطلح علم الأصوات على هذا الدرس، وذلك في كتابه الذي أفرده في الأصوات وهو كتاب << سر صناعة الأعراب >>.

وابن جني في بحثه في الأصوات سلك مسلكاً منفرداً، إذ عقد لها كتاباً خاصاً عرض فيه مقدّمته لكل صوت على انفراد، ولم يكن غرضه على حد قوله ذكر هذه الحروف مؤلفة لأنّ ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللّغة، وهذا ما يطول جداً، وليس عليه عقدنا هذا الكتاب، وإنّما الغرض منه ذكر أحوال الحروف منفردة أو منتزعة من أبنية الكلم التي هي مصوغة فيها >> (29) ، ودراسة الحروف على هذا النسق والنحو يعتبرها ابن جني عالماً قائماً بذاته لا تقل أهمية عن الصرف والنحو >> (30)، وقد استطاع بما أوتي من بصيرة نافذة وحسي لغوي دقيق أن يجمع بين قضيتين شغلنا علماء العربية، هما: قضية التلاؤم والتناظر في التركيب الصوتي للكلم، وقضية العلاقة بين الألفاظ ومعانيها.

فهو قد نظر إلى اللّغة على أنّها أصوات تحمل دلالات، وإن كان قد نصّ صراحة على أن فكرة التقابل بين أصوات الألفاظ وما تدل عليه من معاني، قد سبقه إليها الخليل و سيبويه، وقد أوردها هو في مبحثيه تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني. وإمساس الألفاظ أشباه المعاني في كتابه الخصائص (31)

وعرف الدرس الصوتي في القرن الخامس الهجري عالما آخر من أبناء هذه اللغة الكريمة يشهد له الدرس الصوتي بالسقاء في العطاء والجدة في أبحاثه، وهو الشيخ الرئيس ابن سينا الذي كان طبيا وفيلسوبا، أفاد من اختصاصه في الطب بأنه ألف رسالة بعنوان << أسباب حدوث الحروف >> تعرض فيها إلى قضايا صوتية جوهرية هامة تتعلق بالجانب الفزيولوجي والفزيائي، وذلك لاستعانتة بعلم التشريح، فقدّم الجديد المتميز إلى علم الأصوات.

ولا ننسى العالم اللغوي السكاكي في كتابه مفتاح العلوم، وفيه وضع أول رسم تخطيطي توضيحي لمخارج الأصوات.

كما نجد الجاحظ، المؤلفون في إعجاز القرآن، وغيرهم كثيرون جدًا ممن أفاد واستفاد من دراسة المستوى الصوتي للغة العربية.

من هذا الغرض الموجز جدًا يمكننا تسجيل النقاط الآتية:

1- إنّ الدرس الصوتي عند العرب قد نشأ نشأة أصيلة، ونما وتطور يتضافر جهود أبناء العربية في ذاك الزمن البعيد القريب، حيث كانت البداية مع القراءة أداءً وتطبيقاً، ثم تولاه النحاة واللغويون تنظيراً وتقعيداً، فوسّعوا مجال الدراسة ليشمل بالإضافة إلى القرآن الكريم اللغة العربية على اختلاف أدائها، فأثمرت جهودهم على يد الخليل الذي ارتقى بالدرس الصوتي واستفاد تلامذته مما أقره في هذا المجال، ووصلوا إلى حقائق صوتية رائدة يعتد بها الدرس الحديث، و تم كل ذلك في زمن لم يكن فيه يد العالم المجاهد في سبيل العربية و في سبيل رفعة و رقي و تطور العربية، لم يكن يده من أدوات و إمكانيات سوى ذوقه الحسّي و ملاحظاته الذاتية الدقيقة، و مع ذلك فقد حقق ما يفخر و نفتخر به نحن اليوم و غدًا.

2- عرف العرب و أدركوا جيدًا حقيقة الدراسة اللغوية و التي يعتبر الدرس الصوتي فيها مقدّم على باقي دراسات المستويات الأخرى (الافراية و التركيبية) .

3- عرف علماء العربية الأبجدية الصوتية للغة العربية و رتبوا حروفها على أساس علي دقيق هو الأساس الصوتي الذي ابتكره الخليل بن أحمد.

كما عرف علماء العربية الجهاز النطقي و كل أعضائه معرفة صحيحة و دقيقة و عرفوا عمل كل عضو منه في إنتاج الأصوات اللغوية.

و أخيرا مما لا يختلف فيه اثنان أن نشأة الدرس الصوتي الذي تطوّر إلى علم الأصوات عند العرب كان الدافع و السبب الأول في ظهوره هو السعي لفهم النصّ القرآني باعتباره ضباط مناط الأحكام التي تنتظم بها الحياة.<<(32)

تلك هي اللغة العربية، و تكلم أبناءها الأبرار، فماذا عَنّا نحن اليوم؟

حري بنا أن نجعلهم قدوتنا، و دراساتهم و أعمالهم الحافز المحرّك لغيرتنا عليها و حبّنا لها و العمل من أجل النهوض بها لأن نهضتنا بنهضتها.

و لا بأس أن أختتم فأقول:

>> إنّه مما لا يختلف فيه اثنان أيضا أن المتحدّث عن أبناء العربية يجد نفسه شاعرا أو لم يشعر ينتقل إلى الحديث عن العربية بحد ذاتها فكل منهما مرتبط بالآخر.

و مما لا يختلف فيه اثنان أيضا أن ارتباط الابن بأمّه أشد و أكبر و هو أكثر محاسبة على القيام بواجبه نحوها، فكما نبرّ أمهاتنا اللاتي ولدنا نبرّ أمنا التي تحملتنا و احتضنتنا بكل أخطاءنا و زلاتنا و تهاونا و تخاذلنا، بل احتضنت كل وجودنا، فحق لها أن نبرّها و نسعى في برّها سعيا. و السلام عليكم و ورحمة الله تعالى و بركاته..... و للبحث بقية ..

هوامش

01. عبد الرحمان جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة العربية، شرح و تعليق محمد أحمد جادا المولى، على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العربية، دت، د ط، صفحة 236.
02. المصدر السابق، الصفحة السابقة.
03. عزّة حسين غراب، المعاجم العربية، رحلة في الجذور، التطور الهوية، مكتبة نانسي دمياط مصر، 2005، د ط، صفحة 07.
04. حسين نصار، المعجم العربي نشأته و تطوره، مكتبة مصر، 1988. ط 4، صفحة 13.
05. عزّة حسين غراب، المعاجم العربية، صفحة 07.
06. حسين نصار، المعجم العربي، صفحة 14.
07. المعاجم العربية، صفحة 42.
08. مصطفى الرافي، حضارة العرب، دار الكتاب اللبناني، لبنان 1981، ط 3، ص، 285.
09. المعاجم العربية، صفحة 43.
10. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط القاهرة، 1988 ج 02، صفحة 13.
11. المعاجم العربية، صفحة 41.
12. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج1، صفحة 03.
13. عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة جديدة و منقحة، 2005، صفحة 546.
14. لحن العوام. صفحة 04.
15. محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب، إلى نهاية القرن الثالث، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980، ط1، صفحة 38.

16. مقدّمة ابن خلدون، صفحة 546.
17. المصدر السابق. صفحة 556.
18. المهدي بوروية، المصطلحات الصوتية عند النحاة و اللّغويين العرب، (رسالة ماجستير)، جامعة حلب، 1989، نقلا عن ابن الأنبر، غريب الحديث ج1، صفحة 05.
19. الجاحظ، البيان و التبيين، صفحة
20. الحافظ أبو الحسن محمد بن محمد الدمشقي (ابن الجزري)، النشر في القراءات العشر، تصحح و مراجعة على محمد الصباح، دار الكتاب العربي، د ت، د ط، ج1، ص 315.
21. ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1، ص 315.
22. جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، التقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت، ج1، صفحة 133.
23. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، الكتاب العربي، بيروت، د ت ، ط8، صفحة 61.
24. النشر في القراءات العشر، ج1، صفحة 198.
25. الإتقان في علوم القرآن، ج1، صفحة 132، 133.
26. إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، صفحة 67.
27. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، 1996، د ط، صفحة 71، نقلا عن النشر في القراءات العشر، ج1، صفحة 11.
28. المهدي بوروية، المصطلحات الصوتية، صفحة 37.
29. عثمان بن جني، سر صناعة الأعراب، تحقيق مصطفى الشفا، محمد الزقزاق، دار مصطفى البابلي، مصر 1954، ط1، ج1، صفحة 07.
30. التراث العربي (مجلة) اتحاد الكتب العرب، دمشق، 1984 " الصوتيات عند ابن جني"، بدر الدين قاسم الرافعي، صفحة 72.
31. ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ط1، ج1، صفحة 147- 170.
32. عبده الراجحي، فقه اللّغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت سنة 1972، د ط، صفحة 54 (بتصرّف).